Journal of Alasmarya University
Volume 25, December 2015

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الخامس والعشرون، ديسمبر 2015

الأفارقة والعرب حوار اللغة والأدب

اللغة العربية في أفريقيا

د. محمد علي كندي*

لاشك أن علاقة العرب بأفريقيا علاقة تاريخية متينة، ولأسباب عديدة كان التواصل العربي مع القارة السمراء موغلاً في العمق، مادياً ومعنوياً، يمتد زمنياً بامتداد الوجود البشري على هذا الكوكب، ويتجسد علمياً في تمازج الدماء والأعراق والأنساب، وبخاصة في منطقة شمال خط الاستواء[1]، على الحد الذي يمكن اعتبار معظم شعوب هذه المنطقة تنتسب إلى العروبة بصلة ما، ولا يعني هذا ميزة للعرب حققت لهم هذا الانتشار، في هذا الفضاء المهم، وإنما يؤكد حتمية التواصل بين أبناء الفضاء الواحد، بكيفية ما، وعبر وسيلة ما من وسائل الاتصال والتواصل، مع عدم إغفال، بل لا يمكن إغفال ركيزة أساسية بالغة الأهمية، تلك هي رسالة الدين الخاتم على النبي الأعظم محمد ﷺ التي كان لها الفضل الأكبر في هذا الحضور العربي المميز في ربوع القارة السمراء، وإذا كانت نتائج الاتصال العربي بأفريقيا قد فاقت ما بذل من جهود لتحقيق هذا الهدف، فإن القوة الخفية في هذه المعادلة المنطقية هي الرسالة المحمدية إلى الناس كافة، فهي الطاقة الدافعة، غير العادية، التي دخلت على أطراف المعادلة، فأدت إلى مضاعفة

* الجامعة الأسمرية.

1- هذا التحديد يشمل الحزام السوداني الممتد من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً.

النتائج وتعظيم النواتج بهذا القدر المذهل.

1. التاريخ والأنساب

لقد توجه أوائل المسلمين إلى أفريقيا، قبل أن يفكروا في أي مكان آخر خارج المهبط الأول للوحي، ففي السنة الخامسة من البعثة النبوية، حيث كان أولئك النفر في أشد حالات الضعف والعوز والحاجة إلى ركن آمن يلتجئون إليه، فراراً بدينهم من اضطهاد المشركين في مكة، كانت أفريقيا ذلك الملاذ الآمن، فكانت الهجرة إلى الحبشة، بأمر من النبي ﷺ، عندما اشتد بطش المشركين من قريش بأتباعه المستضعفين، طمعاً في إعادتهم إلى ملّة الأوثان والأصنام، وبالنظر إلى ما شهر عن ملك الحبشة، من عدل وإنصاف، وما عرفت به أرض الحبشة من خصب ومياه، كانت الوجهة الأولى للهجرة الإسلامية.

جاء في سيرة ابن إسحاق، عن أم سلمة، رضي الله عنها، أنها قالت: لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ... قال لهم رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه «فخرجنا إليها أرسلاً، حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار»[2].

وكان أمام المدينة المنورة ما يناهز ثمانية أعوام لتصبح مقصداً للهجرة وداراً للمهاجرين، وإن كانت من الناحية الجغرافية أقرب من ذلك بكثير، ويضمها ومكة إقليم واحد، وهو إقليم الحجاز، ما يعني أن بعض أقاليم القارة الأفريقية كانت الأقرب -معنوياً- من بعض المناطق المتاخمة لمكة زمن البعثة النبوية، وتلك إشارة مهمة لا ينبغي إغفالها؛ ولسنا بحاجة، بعد هذه الإشارة، إلى تأكيد العلاقات بين القبائل العربية قبل الإسلام وأبناء أفريقيا، وبخاصة في مناطقها المتاخمة للجزيرة العربية، ففي هجرة النفر الأوائل من المسلمين إلى أفريقيا، ما يكفي من الدلالات على عمق الترابط والمعرفة التفصيلية بأحوال تلك المناطق وظروف الحياة فيها، بمكوناتها كافة، سياسية واقتصادية واجتماعية، إذ يذكر أن النبي ﷺ

2- ابن اسحاق، السيرة، ص213.

عندما أمر أولئك النفر بالهجرة إلى الحبشة قال لهم: « إن بها معايش وسعةً وملكاً عادلاً لا يُسلمُ جاره »[3]، وفي هذا النص ما يشير إلى الحالة الاقتصادية (معايش)، وإلى الطبيعة الجغرافية (سعة)، وإلى الوضع السياسي (ملكاً عادلاً)، وإلى الأعراف والتقاليد السائدة (لا يُسلم جاره)، ما يعني معرفة تفصيلية بالحبشة وأحوالها.

ومنذ ذلك التاريخ، وربما قبله، والحوار بين أفريقيا والعرب لا يتوقف، فبعد هذه الهجرة الأولى، بعث النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة، في السنة السادسة للهجرة، بكتاب إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام، فأهدى المقوقس النبي ﷺ أربعاً من الجواري، إحداهن مارية القبطية (أم إبراهيم)[4]، فلما استقر الإسلام في جزيرة العرب وما حولها، وانطلقت أفواج الفتح المبين، كان فتح مصر سنة 20 هـ، وطرابلس سنة 22 هـ ويروى أن عمرو بن العاص، عندما فتح طرابلس، كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « إن الله قد فتح علينا طرابلس ...، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يفتحها الله على يديه، فعل »؛ وهو ما يدل على أهمية طرابلس بالنسبة لأفريقيا، وإن كان بعض الباحثين يجعل هذه التسمية خاصة بتونس الحالية، وهذا صحيح لكنه عم سائر القارة الأفريقية، وصار علماً عليها.

وبعد هذا التاريخ بفترة ليست بالطويلة (النصف الثاني من القرن الأول الهجري) أخذ الإسلام يسري في أوصال أفريقيا ومعه ينساب اللسان العربي المبين، لسان القرآن، ولغة أهل الجنة، في يسر وسلاسة، ودون إسناد من قوة عدا قوة الحق وحسن الجدال، وبلاغة الحجة؛ « ويميل جل المؤرخين -الأفارقة منهم بالذات- إلى أن الإسلام انتشر في بلاد أفريقيا السوداء انتشاراً سلمياً حيث وجد فيه الأفارقة دين الفطرة القريب إلى نفوسهم فاعتنقوه ... »[5]، وأحسب أنه لا أحد يماري في هذا، فوقائع التاريخ تؤكد أن الإسلام قد انتشر في ربوع القارة الأفريقية بعفوية تامة، كانسياب المياه في أنهارها الرقراقة، وإن كان في اتجاه معاكس

3- م. س. ن

4- المقريزي، إمتاع الأسماع، ج1/307.

5- الخليل النحوي: www.isesco.org

لجريانها، حتى أنه لا يكاد يذكر حادث بعينه إليه يعزى انتشار الإسلام في القارة السمراء، ومعه اللغة العربية وآدابها.

أما على صعيد الأنساب فإن عدداً غير قليل من أفذاذ الصدر الأول للدولة الإسلامية يتصلون بأفريقيا بصلات نسبية، قال اليعقوبي في وصف عمر بن الخطاب: « كان عمر طوالاً أصلع أقبل شديد الأدمة أعسر يسراً، يعمل بيديه جميعاً ويصفر لحيته »[6].

وليس الخطّاب فريدا في هذا الشأن، إذ يذهب أصحاب التاريخ إلى أن عدداً آخر من أشراف يتصلون بالأحباش بنسب ما، ويعدون الخطاب بن نفيل، والد عمر بن الخطاب من هؤلاء، فأمه حبشية تدعي (حية) كانت لجابر بن أبي حبيب، ويقال أن ثابت بن قيس الأنصاري عيّر عمر بن الخطاب بهذا النسب قائلاً: « يا ابن السوداء »؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجرات: 11][7].

2. الانتشار والازدهار

لقد أصبح اللسان العربي يشكل رابطة جديدة ومتينة بين الناطقين به، والمنتمين إليه، بعد أن تحولت اللغة العربية إلى لغة إنسانية، تسمو على المحاصرات العرقية والإقليمية، بفضل القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين، على النبي ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، كافة دون تمييز بعرق أو بلون أو بلسان، وتأكيداً لهذه القيمة الإنسانية للغة والقرآن، ورد عن النبي محمد ﷺ ما معناه: ليست العربية من أحدكم بأب أو بأم، وإنما العربية اللسان من تكلم العربية فهو عربي؛ وعندها لا تمثل سيادة اللغة العربية لإقليم ما أو في قارة ما، تفوقاً للعرب أهل اللغة أصلاً، عمن سواهم من الناطقين بها والمنضوين تحت لوائها، لأنها لم تعد لغة قوم أو عرق بعد أن أصبحت لغة رسالة وحضارة، تخاطب الإنسانية قاطبة، وتنهض على قرائح أعلامها وأفذاذها؛ ولكل متصل بها، بخير، أثره الطيب فيها،

6- تاريخ اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999، ص111.

7- ينظر: أبو جعفر محمد بن حبيب، المحبّر، طبعة دائرة المعارف العثمانية، ص306.

ونصيبه الوافر من ثمارها اليانعة.

وفي هذا أحد الأسباب المهمة التي كتبت لهذه اللغة الذيوع والانتشار، والبقاء والاستمرار والنمو والازدهار، فلم تبق لغة حيّة سواها من اللغات التي نزلت بها الرسالات السماوية، لأنها اللغة التي اختارها الله للرسالة الشاملة التامة الخاتمة لسلسلة الرسالات السماوية.

أما السبب الثاني فيتعلق بأسلوب الدعوة ومنهج الدعاة الذين حملوا هذه الأمانة العظيمة، انطلاقاً من إيمان كل مسلم بواجبه الشرعي، ودوره الإنساني في التبليغ عن النبي محمد ﷺ ولو بآية، بعد أن أمر بذلك صراحة في قوله: «بلغوا عني ولو آية وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[8] و«ورحم الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها»[9] تنفيذاً لأمر المولى عز وجل في كتابه العزيز: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

وعلى ذلك لم يقتصر واجب الدعوة والتبليغ على فئة مخصوصة، وإن كان لعلماء الشريعة ومشائخ الطرق الدور الأبرز فيه، بل صار من مشاغل المسلمين جميعاً، علماء وقضاة وتجاراً وأصحاب حرف ورعاة، لأنه واجب عقدي لا تبرأ الذمة إلا بأدائه، في وقته المناسب ومكانه المعين، بحسب الجهد والطاقة.

ولقد كان لهذا الفهم دور فعّال ومهم في انتشار الإسلام ولغة القرآن في أرجاء العالم، وعلى الأخص، في ربوع القارة الأفريقية، حين تكاثفت الجهود في إنجاز هذا الواجب، فتعاضد العلماء والدعاة والمشايخ والتجار وغيرهم، واعتمدوا جميعاً الدعوة بالفعل قبل القول، حين التزموا قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125] فعاملوا الناس برفق ولين، وجاءوا إخوة عاملين لا غزاة فاتحين، ولا سادة ومعلمين، ولنا في هذا المقام أن نعود إلى رسالة الشيخ عبد السلام الأسمر رحمه الله[10]، إلى مريديه وإخوانه بمدينة (تمبكتو) –

8- البخاري: الحديث رقم 3461، باب ما يذكر عن بني إسرائيل.

9- المستدرك للحاكم، كتاب العلم، الحديث رقم: 296.

10- عبد السلام بن سليم الفيتوري، المشهور بالأسمر، من أعلام ليبيا المشهورين، (ت =

على سبيل المثال- التي بعث بها إليهم تواصلاً معهم، ومناصحة لهم، حاثاً لهم على التمسك بالدين والزهد في الدنيا، وإيثار ما يبقى على ما يفنى، منوهاً إلى أهمية اللغة وإجادة علم النحو، في تقويم اللسان وتلاوة القرآن قائلاً: -بعد المقدمة بالحمد والثناء على المولى جل وعلا والصلاة والسلام على رسوله الكريم- «من العبد الفقير لله عبد السلام بن سليم الفيتوري إلى الأحباب الأنجاب جعلهم الله من أهل السنة والكتاب السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...».

ولعلّه من الملاحظ أنه يذكر اسمه كاملاً موصوفاً بالفقر والعبودية، ليكون من عامتهم، نافياً أي معنى للعلو أو التميز الذي قد يراه بعضهم في شخصه، أما عندما يتوجّه بالخطاب إليهم فيصفهم (بالأحباب) ويدعو لهم بأن يكونوا (من أهل السنة والكتاب).

ولا يخفى ما يحمله هذا المفتتح من التودد والتلطف مع المخاطبين بقصد الاستمالة وتفعيل التوصيل بين المرسل والمتلقي.

ثم يشرع في تقديم نصائحه ووصاياه معتمداً النقول من النصوص والمأثورات للاستشهاد بها، والبرهنة والإقناع[11] في لغة واضحة وميسرة تحافظ على الفصاحة وتقترب من أفهام الناس، مؤكداً على الجوانب العقدية والواجبات العبادية، ثم يلتفت إلى أحد المحاور الأساسية في رسالته وهو (علم النحو) وأهمية تعلمه وشرف متعلمه «وتعلموا النحو فإنه زين الكلام، وجمال المنطق، وقوام اللسان، وهو علم من أشرف العلوم، يزيد المرء بعلمه فهماً ...، وفي الحديث (أعربوا الكلام كي تعربوا القرآن)، ... ولا ينبغي للنحوي أن يرى نفسه فوق غيره تكبراً، ولا يحل له أن يستهزئ بكلام الغير إذا قارنه اللحن»[12].

= 982هـ/1573ف)، ينظر: محمد مخلوف، تنفيح روضة الأزهار، الطيب المصراتي، فتح العلي الأكبر، إسحاق المليجي، على هامش حياة سيدي عبدالسلام الأسمر، أحمد حامد، الطبقات العروسية الشاذلية، د. مصطفى بن رابعة، رسائل الأسمر إلى مريديه.

11- ينظر: د. الخضر عبد الباقي محمد، رسالة الأسمر إلى تمبكتو، مجلة الأسمرية، العدد 11، ص 542.

12- عبد السلام الأسمر، رسالة إلى أصحابه بتمبكتو، جمع: د. مصطفى بن رابعة، دار المدار =

ويسترسل في تأكيد هذه الأهمية، نقلاً وعقلاً، فيورد أحاديث عن النبي ﷺ وأقوالاً عن الصحابة والتابعين إلى يومه، بل لا يتردد في التدليل ببعض الأقوال الشعبية من مثل « زين النساء الشحم، وزين الكلام النحو »، ويسوق بعض القصص والمواقف التي تؤكد حاجة التلاميذ والمريدين وطلاب العلم إلى علم النحو.

تكونت رسالته هذه من إحدى وعشرين فقرة إضافة إلى المفتتح، كلها بدأت بالطلب، ودارت الجمل الطلبية في التراكيب الآتية: « اعلموا رحمكم الله – اعلموا – أوصيكم – عليكم – إياكم – إخواني »، وتجدر الإشارة إلى أن عدد الفقرات التي استهلت بالنداء (إخواني) بلغ ثمان مرات، وبذلك احتل المرتبة الأولى في معدل التكرار، جاء بعده الطلب (اعلموا) بعدد سبع مرات، ثم (أوصيكم) بعدد ثلاث مرات، (وإياكم) مرتين، وأخيراً (عليكم) مرة واحدة ليكون الترتيب وفق معدل التكرار « إخواني – اعلموا – أوصيكم – إياكم – عليكم ».

ولعل هذه النتيجة تؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن الدعاة والعلماء ومشايخ الطرق قد انتهجوا أسلوباً ليناً وودياً في التواصل مع أبناء القارة السمراء، ففي هذه الرسالة النموذج، تتجلى الغاية التربوية العلمية الدعوية، ومدى الحرص على إقامة أمتن العلاقات مع من يتوجه إليهم بالدعوة والخطاب، ابتداءً من مفتتح الرسالة حتى خاتمها، حيث لم يرد التركيب (عليكم) إلا في فقرة واحدة تعلقت بالتربية والزهد، « عليكم بالزهد، قال سفيان الثوري –رحمه الله– الزهد: قصر الأمل في الدنيا، وليس أكل خبز الشعير ولبس العباءة، وقال الإمام الجنيد: هو خلو اليد من الدنيا، وخلو القلب من طلبها »[13]، كما أن التركيب (إياكم) ورد في سياق نهي تقبله النفس، بل تطلبه النفوس الأبية السوية، « إياكم وخلطة الأراذل ... »، « إياكم ثم إياكم أن تذكروا حال الزوجة في فراشها إذ هي أمانة عندكم ولا يذكر حالها عند ذلك، إلا فاسق خسيس »[14]، وتكون خاتمة الرسالة ببعض الأدعية والأوراد التي تناقلها مشايخ الصوفية، وبعث بها الأسمر إلى أصحابه ومريديه؛ وإذ

=

الإسلامي، ط1، 2003، ص 232، 233.

13- رسائل الأسمر، ص 245.

14- نفسه، والصفحة نفسها.

تقدم هذه الرسالة أنموذجا من البيئة المحلية للجهود الدعوية في مجال اللغة الذي نحن بصدده في هذا البحث، فلا يعني هذا تمييزا لصاحبها عن غيره من الدعاة ولا تسليما بمعظم ما نقل عنه أو نسب إليه؛ ويمكن إجمالا أن تقدم الإشارات التالية من خلال التحليل السابق:

- أتباع الرسالة المحمديّة -جميعاً- مطالبون بالدعوة إلى دين الله تعالى الدين الإسلامي الحنيف الذي ارتضاه جل وعلا لعباده كافة.
- لا يرى المسلمون مزية لهم عمن سواهم من أبناء جنسهم، ولأجل ذلك فهم يجدون في دعوتهم وتبصيرهم رأفة بهم، ومحبة ورغبة في صلاحهم ونجاتهم، بل إن المسلمين يعتبرون ذلك واجباً عليهم وفاءً لأواصر الأخوَة الإنسانية.
- أمر التبليغ والدعوة ليس شأناً خاصاً، بل هو شأن عام يتعلق بكل مؤمن، وهو لذلك لا يتوانى في القيام به، مهما كانت الظروف والصعوبات، فأين (تمبكتو) من (زليتن) في ذلك الزمان، وكيف للأسمر أن يمارس الدعوة في أعماق الصحراء، وهو الفقير المطارد لولا ذلك الإيمان واليقين؟.
- لقد كانت أفريقيا ومازالت الفضاء الأهم للعرب والمسلمين، وهي محل عنايتهم واهتمامهم، ومحط آمالهم وأحلامهم في احتضان الحضارة العربية لإسلامية ودعمها وإسنادها، ورفدها وإثرائها.
- اللغة العربية هي عماد الحضارة الإسلامية، وهي الإطار الجامع الذي يوحد أتباع الرسالة الإسلامية، في توجههم الواحد العظيم في عبادتهم ودعائهم، وهي لذلك لغتهم جميعاً، لأنها لغة نبيّهم ﷺ والكتاب الذي بعث به (القرآن الكريم).
- لكل ذلك لا يشعر (المستعربون) من أبناء أفريقيا، ومن غيرهم بأي حرج أو غضاضة، ولا ينبغي أن يشعروا، لأنهم إنما يتعلمون لغة رسالة لا لغة قوم أو عرق، ويدرسون تاريخ جماعة أو إقليم، وهم بذلك يؤدون واجباً، ويسدون خدمة لإخوانهم في العقيدة، وفي الإنسانية عموماً، عندما يسهمون في التعريف بهذا الدين وثقافته، والدعوة إليه، والعمل على سيادته ورفعتها.

3. النكبة والاندحار

بعد هذه الحقبة الطويلة نسبياً من الازدهار للمد العروبي الإسلامي في أفريقيا، نُكبت القارة، كما سائر مناطق العروبة والإسلام، بجحافل الاستعمار الأوروبي الغاشم الذي اجتاح القارة منذ أواسط القرن الثامن عشر، وإن كانت طلائعه وبعوثه قد سبقت هذا التاريخ، وخلال الفترة الاستعمارية، التي امتدت نحو مائتي سنة تقريباً، تم القضاء على كل مقومات الهوية والانتماء في أفريقيا، أو يكاد، واعتمدت خطط وضيعة لتشويه كل ما هو عربي إسلامي، وجرى العمل على تدمير أو ملاحقة كل (ما ومن) يمت إلى العروبة والإسلام بصلة.

فبعثت الإرساليات التنصيرية، وما تزال، وخصصت لها مبالغ ضخمة، ودعمت بإمكانيات مادية وبشرية هائلة، بهدف زعزعة العقيدة، وتحويل الأفارقة عن الإسلام أو أديانهم القبلية، ونقلهم إما إلى النصرانية المزعومة، أو إلى الوثنية الحديثة؛ ووضعت المناهج التعليمية التي فرضت على الناشئة من أبناء القارة الأفريقية، وحشيت، حتى طفحت، بالأكاذيب والمغالطات في محاولة للإساءة للإسلام وللنبي محمد ﷺ، بإلحاق كل ما هو سيء، وغير إنساني بهذا الدين، وإسناد كل أفعال الشر والفساد لأتباعه ورموزه، وفي المقابل يكون البيض المستعمرون أطواق النجاة وفرسان الخلاص لهؤلاء الأفارقة الضعفاء المعذبين المضطهدين، في استغفال سافر لأبناء هذه القارة، وكأن الأفريقي لا حول له ولا إرادة، وكأنه لا يكون إلا ضعيفاً مغلوباً، وهذه نماذج مما درّس الأوروبيون في مدارسهم بأفريقيا:

« ... أتى البلجيك إلى الكونغو، فوجدوا فيه (تيبوتيب) العربي، فطردوه هو وجنوده، عندئذ نظم العجوز العربي قصيدة، ...، يقول فيها: دعوني هنا أنكل بالزنوج، دعوني أصطادهم لأنهم وحوش، ... هؤلاء وحوش يجب ضربهم بالسياط، هؤلاء حيوانات يجب إذلالهم، ...»، ويمضي هذا النص المقرر على تلاميذ المدارس الابتدائية في المستعمرات البلجيكية في إقامة حوار بين المحررين (البيض) وبين المستعمرين (العرب) تسند فيه كل المعاني السالبة للمحاور (العربي) المفترض، وكل الصفات الموجبة للطرف الغربي، الموجود فعلاً إبان

الحقبة الاستعمارية[15].

ومع أن التلفيق ظاهر جلي، وعلى الرغم من سطحية هذه الأفكار وسذاجتها، لكنها -وبكل أسف- وجدت أرضية لها، وسرى أثرها في جيل كامل من أبناء أفريقيا، وربما أكثر، ولعل السبب يكمن في طبيعة المرحلة الزمنية، وإلى ماهية الحافز الذي يقدم، فحوافز الثقافة الغربية، وكما هو معلوم، مادية دنيوية، في حين تأتي معظم حوافز الثقافة العربية الإسلامية معنوية أخروية، فربما تمكن دهاة الغرب من تقديم ما تشهيه النفس البشرية، وتستعجل به، مستفيدين من المنجزات المادية التي تحققت في أوروبا الحديثة، ولم تكن معروفة بين أبناء أفريقيا، ولا في المنطقة العربية؛ وفد يتساءل متسائل: ما علاقة هذا باللغة؟ وما الرابط الذي أنى بهذا النص في هذا الموضع؟ ولا أحسب أن العلاقة بعيدة وخفية إلى هذا الحد الذي يغيب عن مثل ذلك المتسائل، فاللغة أساس كيان الأمة وهي هويتها التي بها تتقدم وتقدمها للآخرين.

وبصرف النظر عن مدى وجاهة هذا التعليل، وما يمكن أن يساق من علل وأسباب أخرى، فإنه من المسلم به أن الحملة الغربية الشرسة تمكنت، وفي زمن محدود[16] من تحويل القارة -ثقافياً- إلى الاتجاه الذي تريد لولا بقية من عقيدة حالت دون تنفيذ المشروع الاستعماري بتمامه، فقد تخلت الكتابة الأفريقية عن الحرف العربي، واستعاضت عنه بالحرف اللاتيني، وهجرت معظم الدول الأفريقية لغة الآباء والأجداد، وأصبحت اللغات الأوروبية هي لغاتها الرسمية[17]، وأصبح إتقان تلك اللغات سبيلاً للسيادة والوجاهة، حتى غدت زيارة الدول الغربية، والعيش فيها -إن أمكن- أمل معظم شباب أفريقيا، ومحط آمالهم، يضحون من أجله بكل شيء، ويقدمون أرواحهم رخيصة لتحقيقه واقعياً، فيفوز القليل منهم بما

15- ينظر: د. مصطفى أحمد علي، التواصل، ع 19، ربيع 2010، ص 17.

16- لا يمثل سوى 20٪ من زمن الوجود العربي الإسلامي.

17- يكفي أن نعلم أن ثلاثاً وأربعين دولة من بين ثلاث وخمسين دولة أفريقية اعتمدت اللغات الأوروبية لغات رسمية لها، منها اثنتان وعشرون اختارت الفرنسية، وتسع عشرة اعتمدت الإنجليزية، إلى جانب البرتغالية والإسبانية، بينما لا يزيد عدد الدول الأفريقية التي اعتمدت العربية لغة رسمية أولى أو وحيدة عن سبع دول.

يريد، ويتردى البقية في متاهات السجون وأعماق البحار والمحيطات!!!

4. الواقع والآفاق

على الرغم من الظروف التي مرّت بها اللغة العربية وثقافتها في أفريقيا جنوب الصحراء، وما تعرضت له من تشويه وملاحقة، فإن أبناء القارة الأفريقية لم ينسلخوا تماماً عن الثقافة العربية الإسلامية، بل ظلت المدارس والمحاضر والكتاتيب تقاوم تلك الظروف القاسية وكأنها تتأسى بمحيطها الطبيعي في الصحراء الأفريقية، حيث تصمد الكائنات أمام قسوة المناخ متشبثة بالحياة على الرغم من قسوتها، إذ مازال الحضور قوياً للغة العربية وثقافتها في الدول المتاخمة للصحراء، وبخاصة في غرب القارة وشرقها، بينما يضيق هذا الامتداد في وسط القارة حين يقتصر على تشاد وشمال الكاميرون، أما في جنوب القارة فإن هذا الامتداد يكون في أقل حالاته.

وهذا تحديد عام بطبيعة الحال، فبإمعان النظر يتضح التفاوت بين الأقاليم والبلدان الأفريقية، بل داخل البلد الواحد أحياناً، ففي حين يقتصر وجود اللغة العربية على تشاد والكاميرون في دول وسط القارة، يلاحظ حضور قوي في غربها، إذ تنتشر اللغة العربية في بوركينا وساحل العاج، وبشكل أكثر فاعلية في غينيا والنيجر ومالي ونيجيريا والسنغال، والحال نفسه في شرق القارة، كما في جيبوتي والصومال وجزر القمر و أريتريا وبعض الأقاليم من أثيوبيا، ناهيك عن جنوب السودان.

ولعله من الواضح أن العلاقة بين وجود اللغة العربية وانتشار الدين الإسلامي علاقة طردية، فحيث حلّ الإسلام وانتشرت مبادئه، ازدهرت اللغة العربية، وكثر دارسوها ومدرسوها، فعلى سبيل المثال، يذكر بعض الباحثين أن عدد مدرسي اللغة العربية والعلوم الشرعية في غينيا، أوائل القرن العشرين (1907) بلغ (3757) معلماً، كانوا يلقون دروساً في اللغة العربية والدين لفائدة (25000) تلميذ[18]، ما دفع (بنك غرب أفريقيا) آنذاك إلى إثبات عبارة بالعربية على الأوراق النقدية من فئة (100 فرنك) إصدار عام 1926 ف، تقول «المؤادة نقداً يداً بيد

18- بكري درامي، مقال على: www.llcll.com/vb

للحامل »[19].

أ. العقيدة والواجبات الشرعية

لاشك أن العقيدة الدينية تعد من أهم المكونات الوجدانية وأقواها، ومن شأنها أن تعزز ثقة الإنسان بنفسه، وقدرته على السمو والإبداع بدون كلل أو ملل، وحيث أن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ بلسان عربي مبين، وقال في شأنه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2]، كان لزاماً على المؤمنين بهذه العقيدة أن تهفو قلوبهم إلى هذا اللسان المبين، وأن تشرئبَّ هممهم إلى لغته العربية التي بها ينطقون الشهادة، ويرتلون القرآن، ويقيمون الصلوات ويؤدون المناسك والشعائر، ولذلك فقد حازت في نفوسهم مكانة رفيعة، وصلت أحياناً، إلى مصاف التقديس، فلا بد لأي مسلم أن يلم ببعض الألفاظ والتراكيب من هذه اللغة السماوية الأرضية، كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتحية الإسلام (السلام عليكم) والبسملة، وقراءة شيء من القرآن الكريم، وغيرها.

واللغة العربية -إلى جانب هذا كله- الوسيط الأول للتفقه في الدين، فلا سبيل للاستزادة من العلوم الشرعية بغير إتقان اللغة العربية، ومن أراد الشريعة فعليه أولاً، باللغة، وبذلك أصبح تعلمها والمثابرة على إجادتها من الواجبات الشرعية في حق بعض العلماء والمتعلمين، لأنها من ضمن ما لا يقوم الشرع إلا به، وإذا تعيّن هذا في أعيان لزمهم ما داموا قادرين عليه، مطيقين لتكاليفه، وبهذا الفهم يندفع المشايخ والعلماء لتعلم اللغة العربية، والعمل على تدريسها وتعليمها لأبناء المسلمين كافة، لأنهم يرون أنهم إنما يؤدون واجباً شرعياً مقدساً.

ب. المؤسسات التعليمية

واصلت اللغة العربية تقدمها في هذه الربوع عن طريق التعليم الأهلي (الخاص)، حيث انتشرت المدارس العربية الأهلية مع بدايات القرن العشرين، ومن

19- نفسه.

أشهرها مدارس «جيني وكاييس بمالي، وأبيشي بتشاد، ومعهد أحمد بابا بتمبكتوا ... وغيرها»، وكان التعليم الأهلي يمثل حاضنة مهمة للغة العربية والثقافة الإسلامية، وخط مقاومة لانتشار التعليم الغربي بالقارة الأفريقية، إذ كانت تصنف المدارس الغربية على أنها مدارس إلحادية من بعض مشايخ الطرق، ولذلك فإن التعلم في المدارس الأهلية (العربية أو المستعربة) هو الأولى، ومن شأنه أن يقود إلى الوجاهة الاجتماعية، فقد احتل الفقهاء والعلماء ومشايخ الطرق مكانة مرموقة بين مواطنيهم، وتوارثت بعض الأسر هذه الوجاهة الدينية الاجتماعية، ومن اللافت أن أغلب خريجي المدارس العربية الأفريقية لا يجيدون التحدث بالعربية غلا كبار العلماء منهم أو من درسوا في البلدان العربية، ولعلّ السبب -في ذلك- يرجع إلى التركيز على العلوم الشرعية، والاعتماد على الحفظ والنقل، وبخاصة للقرآن وعلومه، ومصادر الفقه المالكي، إلى جانب ابتداع عربية أفريقية، هي لغة هجين بين العربية والفصحى واللهجات الأفريقية المحلية.

وأمام هذا الصمود والإصرار على اللغة العربية وثقافتها، على الرغم من إزاحتها من الإدارة ومن التعليم الرسمي، حاولت السلطة الاستعمارية أن توظف هذا التعاطف والانحياز لمصلحتها، فعملت على إنشاء مدارس التعليم المزدوج (الغربي/العربي) ساي عام 1957ف، أي قبل الاستقلال بثلاث سنوات، أملاً في كسب ود الأسر المهمة بالنيجر، ومنذ ذلك التاريخ دأبت بعض الدول الأفريقية على اعتماد هذا النمط من المدارس المختلطة، فانتشرت في بعض الدول الأفريقية وبخاصة في النيجر ومالي والسنغال وغينيا، بل إن السنغال قررت تدريس اللغة العربية في كل المراحل التعليمية المعتمدة من الابتدائية حتى الجامعية، وأظهرت استطلاعات للرأي أجريت بين صفوف الطلاب عام 1999 مسيحي أن (81٪) من الطلاب يفضلون اللغة العربية، ويصنفونها بعد الفرنسية، وربما تكفي الإشارة إلى أن عدد المدارس العربية الفرنسية في النيجر قد بلغ، وبحسب الإيسيسكو، (190) مائة وتسعون مدرسة؛ وبفضل هذا التشجيع من الحكومات الأفريقية -بعد الاستقلال- ارتفع عدد المدارس المعنية بتعليم العربية بمالي من 273 مدرسة عام 1986 ف إلى نحو 500 مدرسة بنهاية 2006 مسيحي، وقفز عدد المدارس العربية بتشاد من 5 مدارس فقط بعد الاستقلال سنة 1960 ف إلى قرابة 400 أربعمائة مدرسة عام

2000ف، أما في بوركينا فيبلغ عدد المدارس العربية 220 مدرسة.

وتقدم هذه البيانات الأولية صورة مشرقة للحالة التي تظهر عليها اللغة العربية في هذه الأنحاء من القارة الأفريقية، بخاصة بعد الحقبة الاستعمارية وما صاحبها من تشويش وتضليل، قصد به إقصاء العربية، والقضاء على وجودها الفكري والثقافة في القارة، وهذه نتيجة تنسجم والصمود الذي أبداه أصحاب العربية من الأفارقة، حيث كان صمودهم مشرفاً، وتمسكهم بالعربية لافتاً، ولا يفسره إلا ما سبق ذكره آنفاً من أن المستعربين الأفارقة لا يرون في اللغة العربية لغة قوم أو إقليم وإنما هي -عندهم- لغة رسالة وحضارة.

ج. الوسائل الإعلامية

تتزايد أهمية الوسائل الإعلامية، يوماً بعد يوم، منذ النصف الثاني من القرن العشرين، ومع بداية الألفية الثالثة أصبح الحضور الإعلامي طاغياً ومهيمناً، بالنظر إلى التطور السريع في أدواته ووسائطه، حتى غطى معظم أرجاء المعمورة، ودخل كل بيت تقريباً، وفرض نفسه مكوناً أساسياً من مقومات الحياة المعاصرة، وأصبح الإنسان محاصراً بوسائط التوصيل التي يتسرب منها الإعلام، بشكل مباشر أو غير مباشر، فالصحف والكتب والمجلات ومحطات الإذاعة، وما أكثرها، ووسائل الاتصالات المتعددة، ووسائل المواصلات، وحتى اللوحات الإعلانية على الطرق، كلها توظف لإيصال الرسالة التي يتقصدها المعنيون بالإنتاج الإعلامي.

وبهذه الأهمية أدخل الإعلام في مسألة انتشار أو انحدار اللغة العربية في القارة الأفريقية، ولاشك أن الدول الغربية وظفت -ومازالت- هذا المنجز الحديث الذي تفوقت فيه، وعملت من خلاله على نشر اللغات الغربية بديلاً عن اللغة العربية، وروجت بواسطته لثقافتها وأساليب الحياة وأنماط التفكير التي تعتمدها أو تراها؛ وخسرت اللغة العربية وثقافتها مساحات واسعة من أبناء القارة بسبب توظيف هذا السلاح الفعال في المعركة ضدها، بخاصة وأن هذا الإعلام يستعمل كل الأساليب، المباع منحا والمحظور، لتحقيق ما يريد؛ ومع ذلك كله تمكن المعنيون بانتشار العربية في أفريقيا من الاستفادة ولو جزئياً، من هذا الحضور

الإعلامي المتزايد، واستخدمت الوسائل الإعلامية لهذا الغرض بنسب متفاوتة داخل الدول الأفريقية، حيث تحظى اللغة العربية بحضور مهم في الوسائل الإعلامية لدول شرق القارة وغربها، ففي شرق القارة، كما في جيبوتي مثلاً، تبث الإذاعتان المرئية والمسموعة نشرات إخبارية يومياً باللغة العربية، وتوجد برامج شرعية وثقافية على مدار الأسبوع تقريباً، كما تصدر صحيفة (القرن) الصادرة بالعربية، وفي أثيوبيا تبث الإذاعة ساعة يومياً بالعربية، تخصص للأخبار وبعض البرامج والأغاني، وتصدر عدة صحف ومجلات باللغة العربية، مثل صحيفة (العلم) ومجلتي (بلال) و(الرسالة).

أما في دول غرب القارة فثمة حضور لافت للغة العربية في وسائل الإعلام، ولكنه ما يزال دون المستوى كسابقته، ففي مالي، مثلاً تستخدم العربية في الأخبار مرة في الأسبوع كأي لغة أجنبية أخرى، وإن وجدت بعض الصحف كالمستقبل والصداقة والنجم، وفي نيجيريا تبث إذاعة (صوت أفريقيا) بعض البرامج بالعربية، وتنسحب هذه الوضعية على بقية بلدان غرب القارة جنوب الصحراء، وتتدنى درجات الاستخدام للعربية في دول جنوب القارة، حتى تنعدم أو تكاد على الرغم من النشاط الإعلامي الملحوظ في جنوب أفريقيا مثلاً، لكن لا نصيب للغة العربية فيه.

وتبدو الصورة الإعلامية لحضور العربية خافتة متواضعة في معظم الأقطار الأفريقية جنوب الصحراء، ويرجع السبب بطبيعة الحال، إلى مصدر هذه الوسيلة والجهات التي تهيمن عليها عالمياً، فالإعلام بوسائطه الحديثة، هو منجز غربي، بكل أسف، ولازال حتى اليوم يدور في فلك الثقافة التي أنتجته، ولأجل ذلك فمعظم توظيفاته تصب في مصلحة الثقافة الغربية، والحالات المعدودة التي ذكرت، أو يمكن أن تذكر، لا تعدو كونها محاولات خجلة -حتى الآن- للاستفادة من هذا الفضاء الكوني غير المتناهي الذي أتاحته الوسائط الإعلامية والاتصالات الحديثة، ومع ذلك فهي تمثل خطوة مهمة ورافداً حيوياً لاستمرار وانتشار العربية وثقافتها في ربوع القارة الأفريقية.

د. الإرادة السياسية

مع التسليم بأهمية الروافد التي تقدم ذكرها تظل الإرادة السياسية أهم

الموجهات الفاعلة لانتشار اللغة العربية في القارة الأفريقية، ويبدوا أن حالة الانبهار التي أعقبت الفترة الاستعمارية قد انجلت، وعاد معظم الأفارقة إلى تراثهم ينقبون عن نفائسه وكنوزه، ويعلمون على بعثها وإعادتها إلى المكانة التي تستحقها، بعد أن أهمل ذلك التراث فترة ليست بالقصيرة، ونظر إليه بدونية وازدراء، فترة أخرى، تحت وقع الدهشة والإعجاب بالوافد الغربي الذي فاجأ الإنسان الأفريقي، حين تسلل، صحبة الحملات الاستعمارية، وأوضاع البلدان الأفريقية البائسة مثلت عوناً مهماً في تكوين تلك الحالة غير السوية.

بعد انحسار تلك الحالة أخذت البلدان الأفريقية تعمل على معالجة التشوهات الناشئة عنها، غير أن تلك المحاولات لازالت دون المأمول، فمعظم الدول الأفريقية، وكما سبق، تعتمد اللغات الأوروبية لغات رسمية لها، وتعتمدها في التعليم والمعاملات الرسمية، ومازالت معظم المحطات الإذاعية والمنشورات الرسمية، تبث وتصدر بتلك اللغات، وأفضل ما حازته اللغات الوطنية واللهجات الأفريقية هي أن تصبح لغة ثانية في الأقطار التي تعتمدها أو لغة أولى في عدد محدود من الدول الأفريقية، كالأمهرية في أثيوبيا مثلاً، وهذا ينسحب على اللغة العربية، فعلى الرغم من أنها من أكثر اللغات انتشاراً في القارة من حيث عدد الناطقين بها « يقدر عدد الناطقين بها بنحو أربعمائة مليون أفريقي» فإن عدد الدول الأفريقية التي تعتمدها لغة رسمية لها لا يتجاوز إحدى عشرة دولة، عشر دول منها أعضاء في جامعة الدول العربية، هي: « مصر – ليبيا – تونس – الجزائر – المغرب – موريتانيا – السودان – جيبوتي – الصومال – جزر القمر »، إضافة إلى (تشاد) التي لازالت خارج جامعة الدول العربية.

ويظل الحضور الفاعل للغة العربية في الأوساط الشعبية والدينية من أقوى مقومات انتشارها في القارة الأفريقية، ويمكن أن يشكل مدخلاً مهماً للإسهام في إعادة الهوية الوطنية لأبناء القارة الأفريقية إذا ما أحسن استثماره والتعامل معه[20].

20- ما ورد من بيانات وأرقام مصدرها مواقع مختلفة على شبكة المعلومات الدولية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1. أبو جعفر محمد بن حبيب، المحبّر، طبعة دار المعارف العثمانية.
2. أحمد بن إسحاق اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999.
3. أحمد حامد، الطبقات العروسية الشاذلية.
4. إسحاق المليجي، على هامش حياة سيدي عبدالسلام الأسمر.
5. الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990.
6. البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1999ف.
7. بكري درامي، مقال على: www.llcll.com/vb
8. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، إمتاع الاسماع، تحقيق: محمد عبدالحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999.
9. الخليل النحوي، أفريقيا المسلمة، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993ف.
10. الخليل النحوي: www.isesco.org/mq
11. د. الخضر عبدالباقي محمد، رسالة الأسمر إلى تمبكتو، مجلة الأسمرية، العدد 11
12. د. مصطفى بن رابعة، رسائل الأسمر إلى مريديه، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003
13. د. مصطفى أحمد علي، التواصل، ع19، ربيع 2010.
14. الطيب المصراتي، فتح العلي الأكبر في سيرة سيدي عبدالسلام الأسمر.
15. عبدالسلام الأسمر، رسالة إلى أصحابه بتمبكتو، جمع: د. مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، ط1، 2003.
16. محمد بن إسحاق بن يسار، سيرة ابن إسحاق، تحقيق: محمد حميد الله، مطبعة

محمد الخامس، فاس، المغرب، 1976.
17. محمد مخلوف، تنفيح روضة الأزهار، القاهرة، المطبعة الحلبية، ط1، 1958.
18. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، تقديم: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، د. ت.